اللاتي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌ بحسب حالته. والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى»[83].

وقال «غروسيه» ما نصه، بالحرف أيضاً: «بعكس الصليبيين، نفذ صلاح الدين وعوده بشرف وبشعور إنساني، وبروح فروسية، مما أثار إعجاب المؤرخين اللاتين الذين سردوا أحداث تلك الفترة، ففي 2 ت 1/ اكتوبر، ووفقاً لاتفاقه مع باليان، احتل القلعة (حصن داود) وباقي البروج، لكي يمنع عن الفرنجة أي أذى، كما أنه أقام على الممرات الرئيسية رجال ثقة مهمتهم تنفيذ أمر صارم هو منع إلحاق أي ضرر بالمسيحيين، ووضع على كل شارع فارسين ورتباء لحفظ المدينة، وقد حفظوها إلى درجة أن أحداً لم يشاهد ولم يسمع كلاماً عن مذلةٍ ما لحقت بمسيحي. ثم إنه أجّل دخول القوات المسلمة إلى المدينة لكي يجنّب المسيحيين أية إهانة، ولهذا، لم يكن باستطاعة الجنود المسلمين أن يدخلوها إلا من باب داود (باب الخليل)». ويستطرد «غروسيه»: «طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين (المؤمنين بالثالوث المقدس)، فصدهم عن ذلك بكلمة منه، قال: «لماذا الهدم والتدمير، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس، وليس البناء الخارجي؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعي للوصول إلى هذا المكان. لنفعل، إذن، كما فعل الخليفة عمر الذي احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس في السنوات الأولى للإسلام». ويعلق «غروسيه» على ذلك بالقول: «إن كلّ ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأي والمعتقد يبرز في هذه العبارة الجميلة»[84]. ويعدد «غروسيه» بعدها، الكثير من مآثر صلاح الدين في هذا المجال[85].

---

(83) م. ن. ص 752 ـ 753.

(84) Grousset, Op. Cit., V. 2, pp. 814-816.

(85) Ibid., pp. 816-818. بعد سقوط القدس، تابع صلاح الدين فتوجه في سوريا شمالاً، فاحتل =